

حرب ذى قار بين العرب والعجم

كان السبب في ذلك أن رجلاً من أهل الحيرة يقال له عدي بن زيد العبّادى وهو من ولد زيد مناة بن تميم كان شاعراً أديباً يتكلم بالفارسية ويكتب بها فاتصل بخدمة ابرويز كسرى وكان ترجماناً بينه وبين العرب فكان يقيم بباب كسرى تسعة أشهر ويأتى أهله بالحيرة فيقيم عندهم ثلاثة أشهر وهو الذى اشار على كسرى بتولية النعمان أمر العراق فكان في أعلى منزلة عنده يكرسه إذا حضر ويشئى عليه إذا غاب وكان بين قديمة وكان عدى بن أوس صاحب مكرٍ ودهاءٍ فكان إذا خلا بالنعمان يرمى عدى بن زيد بما يوغر صدره عليه ثم كتب كتاباً عن لسان عدى بن زيد إلى كسرى ينتفض النعمان فيه ويذكر معايبه ونس الكتاب إل يمن يوصله إلى النعمان فلما قرأه النعمان غضب على عدى بن زيد واضمر له سوءاً في نفسه وكان عدى يومئذ في أهله فأمر النعمان بحبسه فكتب عدى إلى النعمان يقول:

أبا منذر كافيت بالود سخطةً
فماذا جزاء المجرم المتبعضِ
فإن جزاء الخير منك كرلةٌ
ولست لنصح فيك بالمتعرضِ

فلم يحفل النعمان بكلامه يقادى على حبسه وف يذلك يقول:

إن للدهر صولةً فأحذرئها
لا تنامنَّ قد آمنت الدهورا
قد بييت الفتى صحيحاً فيردى
بعد ما كان آمناً مسرورا
إنما الدهر لينٌ ونطوحٌ
يترك العظم واهياً مكسورا
فسل الناس أين ال قبّيسِ
طلح لدهر قبلهم سابورا

خطفته منيةً فتردى وهو فى الملك يأمل النعميرا
وبنو الأصفر الملوكة كذا لم يترك الدهر منهم مذكورا

وكان لعدى أخٌ يقال له أبى وكان يخلفه عند كسرى إذا غاب وكان يومئذٍ بباب
كسرى فى المداين فكتب إليه عنى يقول:

يحنُ إليك شقيق الفوا ديكاد لعبدك أن يخترم
لدى ملك موثق بالحديد أما لحقٍ وأما ظلم
فلا تُلَفَّيْنِ كثير الرقاد بل أحزم برأيك لى واعتزم

فلما وصلت رسالة عدى إلى أخيه دخل أخوه على كسرى فأخبره بما كان من
النعمان فغضب كسرى على النعمان وكتب إليه مع رجلٍ من مرابته يأمره بإطلاق
عدى فى الحال فأقبل الرسول إلى الحيرة وبدأ بعدى فدخل عليه فى محبسه وأخبره بما
قدم به فقال عدى أنك إن خرجت من عندى أخاف أن يدس على النعمان من
يقتلنى قال ذلك لا يكون ولا بد لى من الدخول عليه لإبلاغ الكتاب وعلم النعمان
بقدوم رسول كسرى وأمرهم أن يأخذوا نفس عدى فى السجن ففعلوا قبل أن
يدخل الرسول على النعمان ثم دخل الرسول بكتاب الملك فلما قرأه على سبيل المزاح
فذهب الرسول على السجن فوجده ميتاً فرجع إلى النعمان وقال ما قتله غيرك وإنى
لمخبرٌ كسرى بذلك فأعطاه النعمان ألف دينارٍ وسأله أن يحمل أمرة عند كسرى
ويخبره أن عدياً مات حنفاً أنه فأنصرف الرسول وفعل ذلك ولما قتل عدى خاف
ابنه زيد على نفسه فخرج من الحيرة هارباً إلى نجعله فى ترجمان العرب مكانه وكان
للملوك العجم اصطلاحٌ على صفات معلومة للنساء التى يختارونها لأنفسهم فإذا
ارادوا امرأة أرسلوا من يعتمدونه بتلك الصفات لىأتى بمن وجده عليها من النساء
وإن كسرى عند قدوم زيد بن عدى أراد أن يرسل خصياً له فى كتاباً منى إلى النعمان
أن يبعث لى بهنَّ أن كُنَّ على ما ذكرت فكتب زيدٌ الكتاب وأمر كسرى ذلك الخادم
أن يقصد فى ذلك إلى النعمان فقال زيد أن رأيت أيها الملك فأبعث لى معه ترجماناً بينه
وبين النعمان قال نعم فأنطلق أن شيت فخرجا جميعاً وجعل زيد بن عدى يحرف

الترجمة بين النعمان والخصي حتى خرج الخصي مغضباً وانصرف إلى المدائن وزيد معه حتى دخلا فيكموا اللعجم واصطحب اياس في بعض مكامن الطريق فساروا وكمنوا لهم بمكان يقال له الجرثم ثم زحف الفريقان وعلى ميمنة بكر بن وايل حنظلة بن يسار العجلي وعلى ميسرتهم بشر بن شرك وسار المزدلف في القلب بأبطال بنى شيبان وعلى مينة عسكر اياس الهامرز وعلى ميسرته هرمزد وأياس في القلب بمن معه من العرب وما التقى الجيش بالجيش حمل بعضهم على بعض وتقدم بشر بن شريك أمام أصحابه وهو يرتجز ويقول:

قد جدّ أعداؤكم فجّدوا ما علّتى وأنا صلب جلدُ
والقوس فيها وترُّ غرْدُ مثل ذراع البكر أو أشدُّ
قد جعلت أخبار قومي تبدو أن المنايا ليس منها بدُّ

وتقدم الهامرز حتى وقف بين الصفين ونادى بالفارسية مَرَدَ مَرَدَ فقال زيد بن حماد اليشكري ما يقول هذا قيل يدعو إلى البراز رجلاً لرجل قال وأبيكم لقد أنصف وخرج إليه أفضت إلى منكبه فأبانته فسقط ميتاً وكان هذا أول قتيل قتل بين الصفين بتباشرت بكر بن وايل بذلك ورجوا أن يكون آية النصر ثم اشتعلت نار الحرب بينهم وصبرت بكر بن وائل صبراً صادقاً وانتشب القتال بين الصفين أشد ما يكون وتمادوا على ذلك حتى هجم حرُّ الظهرية فعطشت العجم عطشاً شديداً وضعفت عن الكفاح فهالت إلى جبِّ هناك بن الخوس وذى قار فلم تجد ماءً وحال بينهم الليل فبات كل فريق في مكانه وجاءت روا بالماء إلى العجم فشربوا تلك الليلة ولما أصبحوا البعض فالتقوا في تلك الأرض انتشب بينهم القتال وتضاربوا بالسيوف وتطاعنوا بالنصال حتى ضاقت بهم ميادين المجال وعمل هانى بن مسعود في ذلك اليوم عملاً أعمى النواظر وأذهل الخواطر ففرق الكتائب ونكس المواكب ونثر الرجال بتواتر الحرب الصايب وكان قد نفذ من العجم الماء وأصابهم الحرق الطاء وخرج كمين العرب زيد بن حماد وأصحابه من ورايهم في تلك البطاح والهبوهم بالسيوف والرماح فوق العرب وقتلوا منهم مقتلة عيمة ولحق حنظلة بن يسار العجلي لهرمزد قايد العجم فأدركه بطعنة القاه صريعاً مهيج دمًا نجيعاً وابتع

العجم خمسمية فارس من بنى شيبان وانزلوا بهم الثبور والويل وجعلوا يقتلون من أدركوا منهم حتى جنهم الليل ودمع هانى بن مسعود فرسه في طلب اياس بن قبيصة حتى أدركه ومعه قيس بن مسعود فاراد قتله فمعه قيس وحال بينهما فنجا من بين الأعداء واتسع في البيداء وبلغ كسرى هذا الخبر فغضب من ذلك وأخه القلق والضجر وتطايير من أشداه الزبد ومن عينيه الشرر ووقعت الزلزلة والعيويل في المدائن وتلك الأماكن وكان ذلك سنة ستماية وإحدى عشرة للمسيح وهو أول يوم انتصفت فيه العرب من العم وتناولت أعناق العرب في ذلك اليوم وهو من أعظم أيامهم وأكثر شعراؤهم من ذكره قال عمرو بن ثعلبة:

يا يوم ذى قارٍ سقوت مناخيا	غيثا يغسل من دم الحيين
عمرى لقد عطفت علينا تغلب	وشهابها للمع ذو الرحين
فأنجابت الظلماء بابن نورة	وتجلت الغمء عن ظفرين
وظلم لا أنسى هناك مقامه	وجدابة ومعمربن قرين
تلك الفوارس ليس يجحد فضلها	إلا ذميم العرض والأبوين
هم وأزرونا بالصوارم والقنا	وصلوا لهيب النار فى الصدفين

وقال ظلم بن الحارث بن حلزة اليشكرى:

أهاجك طيفاً زار من أم تغلب	ففضا بدمع الواله المتصيب
وما زلت عصراً فى حبايل زينب	إلى أن كسانى الدهر حلة أشيب
واقصرت عن وصل الحسان موالياً	إلى صهوات من سوابق شرّب
إلى كل صنديدٍ يسابق ظله	وكل رقيق الشفرتين مشطب
أغادر أسد الحرب صرعى بعاملٍ	وأبيض قطاع بكف مرسب
إلى أن لقيت العجم والقوم سادة	وفتيان بكر كالسعير الملهب
قلله قومٌ تغليبون شمروا	لقد ذهبوا فى يوم ذى قار مذهبي

وقال بٌكير بن الأصمّ:

هم يوم ذى قار وقد خمس الوغي
ضربوا بنى الأحرار يوم لقوهمُ
خلطوا لهاًما حجفلاً بلهام
بالمشرفى على صميم الهام

وهى قصايد طويلة اقتصرنا منها على هذه الأبيات التى ذكرناها

انتهى

قل مؤلفه هذا آخر ما اثبتهُ من أخبار العرب المتقدمين التى نقلناها من أسفار شتى عن ثقة المؤرخين فجاء بحمد الله كتاباً شاملاً يغنى عن كثير من مطوّلات الأسفار ولا يملّ الناظر فيه من إسهاب الروايات وتطويل الأخبار وكان الفراغ من تبييضه فى أواسط شهر أب سنة ألف وثمانماية وسبع وستين مسيحية الموافق سنة ألف ومايتين وأربع وثمانين هجرية وقد صار طبعه وإشهاره بنفقه الصديق الصفى والخَلّ الوفى أعز الأحياب وأحد الخلّان والأصحاب كيرايوانى ببادوبولس المكرم الأديب الماجد المحترم وذلك غيرهُ منه على إفادة الطالبين وتهذيب القاصرين فقال المؤلف بمدحه:

أثارينى بها قد باهت الكتبُ
شهمُ أباديه فى بذل المكارم ما
مهذب النفس محمود الخصال له
هو الكريمالذى شاعت الطائفهُ
فى ضخصه والبرّ والتقوى قد
قد ميّزته على أقران حضرته
يا أيها الماجد المسعود طالعه
اعتتنا وأعانات الكريم لها
لازلت فى درجات العز مرتقياً
حتى استتم بذا القصد والأربُ
جادت على الناس إلا استحيت
بالفضال بشهدُ عجم الناس
وأشرقت بمعانى وصفه الخطبُ
والأنس واللطف المعروف والأدب
حسن الخصال بذل الماء والحسب
ومن تباعد عن أخلافه الغضب
فيها اياد علينا شكرها يجب
كالدر عن ناظره ليس يحتجب

وقال جناب الأديب الشهير والعالم التحرير مجمع العوارف واللطائف ذو الباع الطويل في العلوم والمعارف السيد عمر أفندى الأنسى مقرّظاً هذا الكتاب:

بنهاية الأرب أغتئم لك ما ريا
رفّت شمائله وراق شبيبها
وسما على وردا الخمائل مورداً
أعيب به سفرأ بدالك مسفراً
أبدى فأبدع من وقائع من مضوا
لا ريب فى فضل المؤلف أنه
ما زال يحسن خدمة الوطن التى
حتمّ عليه ولو تخامل بالعبا
والهمة الإسكندرية طالما
أكرم بصاحبها الذى صحب النهى
فالله يجزيه الجميل لأنه
فهو الريع زها بأزهار الربى
طبعا فكان إلى الطباع محببا
يُصى النفوس بطيه نفس الصبا
عن أوجه الحسن البديع لتعجبا
عربا فأعرب فى البيان وأغربا
ورَدَ المناهل فاستخار الأعذبا
لا تتكرن يد السخى فإنها
والهمة الإسكندرية طالما
سارت مشرقة وسرت مغربا
وجلا من الراح المسلسل مشربا
فعل الجميل وللثا استوجبا

ثم قال جناب الأديب النجيب والشاعر اللبيب وحيد عصره ونتيجة دهره الحاج حسين أفندى بيهم الأفخم:

هذا الكتاب يرى من الطف الكتب
فقد حوىة من قريض العرب ما
من كل بيت هيج اللفظ تحسبه
فى كل معنى سما متن السماء ولا
بيانه يسحر الأبواب من بعد
يقول ناظره والصدق يصحبه
لراغب الشعر فيه غاية الطلب
به عقول الورى لابانة العنب
حصبا در على أرض من الذهب
يرضى نظيراً له بالسبعة الشهب
وحكمة الشعر تشفيها من الكرب
الله أكبر كل الفضل للعرب

السيف أصدق أنباء من الكتب
فى حدّة الحد بين الجدّ واللعب
تقضى لسامعها بالحظ والطرب
يصبو لما حازه من إبداع النخب
ما السماء ينجيها من العطب
أثار أفضاله بالعلم والأدب
أوطاننا مع بذل المال والتعب
خيرًا جزيلًا وهذا منتهى الأرب
ابدى عبير فضائل ومآثر
بين الأكارم بالسناء الباهر
فغدا له حقّ الثناء العاطر

أسياف أذهانهم بالحقّ تنشدنا
وكل قولٍ لهم فى كل معركة
وذا الكتاب حوى من نظمهم غررًا
قد رقّ طبعا وذو الطبع السليم له
شكرى لجامعه شكر الرياض على
إسكندر الهمة الشهم الذى اشتهرت
فهو الحريص على نشر المعارف فى
جزاه رب البرايا عن مآربه
نبتت فروع فنونه من ماجدٍ
هو من تسامى فى سنى آدابه
أهدى إلى الأفكار عطر أزاهيرٍ

ثم قال الخواجه حبيب الخليج:

ونبراس علمٌ فى دجى الجهل ساطعُ
بخير كتابٍ وهو للفضل جامعُ
قديماً بإنشاد القريض بدائعُ
وفى النثر ألفاظ هوتها المسامعُ
على وقول الحقّ للمرء نافعُ
تشير إليه غدتراه الأصابعُ
مكارمه مثل الدرارى سواطعُ

ابدُرُّ بدا فى جبهة الدهر طالعُ
أم الكاتبُ الشهم الأغرأتى لنا
يخبر عن أيام كسرى ومن لهم
ففى الشعر ايات نراها عجائبا
فقلت ومدحى قداراه فريضةً
كتاب فريدٌ قد تحلى بمدح من
ه أسكندر العالى الحجى الماجد الذى

ثم قال المعلم عبد الله التوتوات:

احى فنون العرب أيضاً والحضر

أهدى لنا أسكندر الشهم الذى

وأتى بتأليف يفوق عبقه
فله المديح على عناية جمعه
كروايح الأزهار فاحت فى السحر
بنهاية الأرب المكلل بالدر

ثم قال جناب يوسف أفندى فياض مؤرخاً:

لله دار إسكندر الشهم الذي
أهدى كتاباً فيه كل إفادة
قد حاز فى دنياه علماً وأدباً
قد نال قارئه نهايات الأرب
بدا وقد دون أخبار العرب
فيه بديع الطبع لما أرخوا